العنوان في الومضة القصصية: مقدمة نظرية

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

مقدمة

سأتناول في هذه المقالة مفهوم العنوان في النص الأدبي من الناحية النظرية وأتمنى أن أستطيع أن أتناول في مقالة قادمة العنوان في الومضة القصصية تطبيقيا من خلال تحليل مجموعة كبيرة من عناوين الومضات القصصية المنشورة على مجموعة سنا الومضة القصصية وفي سلسلة كتابها الشهري الذي يقوم بتجميع النصوص المنشورة كل شهر على المجموعة في كتاب الكتروني مستقل.

في لسان العرب: "عَنَّ الشيءُ يَعِنُّ ويَعُنُّ عَنَناً وعُنُوناً: ظَهَرَ أَمامك؛ وعَنَّ يَعِنُّ ويُعُنُّ عَنّاً وعُنوناً واعْتَنَّ: اعتَرَضَ وعَرَض". ومن هذا التعريف ندرك أن هذا الفعل يقترن بالظهور والإظهار والعَرْض. ويقول لسان العرب إن أصل كلمة "عنوان" هي "عُنَّانٌ" وقلبت إحدى النونين واوا وقد تُقلب أيضا إلى "الام": عُلْوَان". ويقول لسان العرب أيضا: "عَنَّنْتُ الكتابَ تَعْنيناً وعَنَّيْتُه تَعْنِيَةً إذا عَنْوَنْتَه، أَبدلوا من إِحدى النونات ياء، وسمي عُنْواناً لأَنه يَعُنُّ الكِتابَ من ناحِيتيه"؛ وكذلك: "ويقال للرجل الذي يُعَرِّض ولا

يُصرِّحُ: قد جعل كذا وكذا عُنْواناً لحاجته"؛ وكذلك: "وكلما استدللت بشيءٍ تُظهره على غيره فهو عُنوانٌ له ". إذن العنوان في اللغة العربية يقترن بالظهور وبالتعريض والتلميح وعدم التصريح وبالاستلال والإبراز. أي أنه يظهر فوق النص ويبرز بوصفه يشغل حيزا مستقلا عن النص ويرتبط بعدم المباشرة بالنسبة للنصوص الأدبية وهي محل كلامنا هنا.

العنوان والنص

العنوان إذن جزء منفصل عن النص ولابد أن يكون النص مكتملا بدونه، فمثلا إذا كان هناك ضمير غير محدد في الومضة ولا يمكن فهمه إلا من خلال العنوان فلابد من التصريح بما/بمن يشير إليه الضمير داخل الومضة.

يأتي العنوان منفصلا بمعنى أن العديد من الومضات إذا قرأناها بمعزل عن العنوان لا تكون مفهومة وتعتمد على العنوان في إنتاج معناها ومغزاها. ولابد أن يكون النص مكتملا في حد ذاته. فمثلا في ومضة لحسناء الرامي نُشِرَتْ على مجموعة سنا الومضة القصصية في بداية تأسيسها بعنوان "قناع": "أزاله لرؤية وجهه الحقيقي؛ فتشظت المرآة"، إذا لم نر العنوان سيؤدي ضمير الغائب المتصل بالفعل "أزاله" إلى الإبهام والغموض المستفحل وقد يؤدي إلى الشك فيما إذا كانت هذه ومضة تتناول موضوعا متسقا

obeikandl.com

ومترابطا أم لا. وعليه، فليضع الكاتب العنوان الذي يراه مناسبا بشرط أن تكون الومضة مكتملة من داخلها وليست في حاجة إلى معين خارجي يساعدنا في فهمها.

العنوان مؤشر على النص وليس مفتاحه. لابد للنص أن يتسم بالنصوصية textuality، أي أن تتوافر فيه كل السمات التي تجعله نصا دالا قادرا على الإيحاء بالمعنى من داخله وليس في حاجة إلى العنوان لكي يبني دلالته. وتناولنا هذه السمات في مقالة مستقلة مخصصة لمفهوم النص وكيف يكون الكلام المكتوب نصا مكتملا في حد ذاته.

العنوان يُبرز سمة من سمات النص سواء أكانت هذه السمة تتعلق بالمضمون أم بالشكل أم بعلاقة النص بما هو خارجة من خلال التناص وما إلى ذلك. ولكنه لا يمكنه أن يكون بديلا عما هو داخل النص. ولا ننسَ أن النصوص قديما كانت بلا عنوان ومع ذلك كانت مكتملة. الشاعرة إميلي ديكنسون على سبيل المثال لم تضع عنوانا واحدا لأي قصيدة من قصائدها وقام الناشرون بوضع عناوين لهذه القصائد مستمدة عن السطر الأول من القصائد، وكذلك سونيتات شكسبير ليست لها عناوين ووضع الناشرون لها أرقاما بدلا من العناوين وقصائد شكسبير وديكنسون من أفضل القصائد في الشعر الإنجليزي وداخلها كل مقومات حياتها.

لابد أن يكون العنوان متسقا مع النص، بمعنى أن العنوان وجهة نظر ننظر منها للنص ولابد أن تكون هذه الوجهة أو النظرة موجودة بالفعل كأحد احتمالات قراءة النص. ولذلك وجب على الكاتب أن يتحقق من أن النص مكتمل في حد ذاته بعيدا عن النص الذي كان في ذهنه ساعة الكتابة أو قبلها، بمعنى أن يتحرر النص من سلطة مكان وزمان كتابته ومن سلطة الكاتب بوصف ذهنه ووجدانه حيزا تدور فيه أحداث النص. وربما لهذا السبب تكلّم رولان بارت ونقاد كثيرون من بعده عن موت المؤلف، وهو من وجهة نظري موت رمزي لأنه سيساعد الكاتب على البعث الأدبي والحياة المتواصلة من خلال نصوصه المتكاملة التي لا تحتاج إلى وجوده شخصيا ليفسر لكل قارئ ما يقصده بهذا العنصر أو التعبير أو ذاك.

بالنسبة لعنوان الومضة، قد يفرض قصرُ النص مقتضياته على عنوانه، وبالتالي قد يكون من الأفضل أن يكون العنوان كلمة أو كلمتين على الأكثر. وبالرغم من أن العنوان الغرض الأساسي منه هو التسمية وتمييز نص عن آخر، تختلف الآراء حول طبيعته ومكوناته، فيرى البعض أن العنوان لا ينبغي أن يؤخذ من كلمة من داخل النص أو من مشتقاتها متعللين بأن ذلك يعد نوعا من التكرار والنص القصير لا يحتمل التكرار. ويرى البعض الآخر أن استنباط

العنوان من كلمة أو تعبير من داخله سواء أكان ذلك حرفيا أم من خلال الاشتقاق اللغوي أكثر وقعا على تأثير النص لأنه يتناسب مع مضمونه من ناحية ويبتعد عن العناوين التقييمية الأخرى التي قد تدخل النص في نطاق المباشرة. ونعرف عن طريق بعض النقاد أمثال جيرار جينيت أن العنوان له ثلاث وظائف أساسية منهما اثنتان وصفيتان وهما إما أنه يصف شكل النص الأدبي أو يصف مضمونه، والوظيفة الثالثة وظيفة إغرائية تهدف لأن تستميل المتلقي أو المشتري لأن يشتري الكتاب. ولكن هذه الوظيفة تسري على الكتاب المطبوع في الأساس، وانتقلت بفضل الانترنت إلى النصوص القصيرة بحيث تجعل الشخص المتصفح ينجذب لقراءة هذا النص دون غيره. وهذه الوظائف الثلاث ليست قصرية، بمعنى أن من يتتبع طرق العنونة المختلفة لدى الكتاب أو لدى الكاتب الواحد قد يتوصل لتقسيمات أخرى لعناوين النصوص القصيرة والطويلة على السواء، سواء كانت هذه التقسيمات موجودة في كليهما معا أو تميز كلا منهما على حدة.

وأرى أن الوظيفة الأساسية الوحيدة للعنوان هي التسمية، خاصة في النصوص القصيرة. فعندما يكون لكاتب ما عشرة نصوص طويلة يمكنه أن يختار لكل منها عنوانا مميزا يتسق مع موضوعها أو شكلها أو أي جانب من جوانب النص. أما بالنسبة

للنصوص القصيرة، فيميل الكاتب لأن يعطي للنص عنوانا مختلفا عن عنوان النص الآخر، تمييزا له لا أكثر ولا أقل. فعندما تكون لدي 500 ومضة على سبيل المثال، لن يكون هناك مجال لتسمية كل نص اسما يتفق مع شكله أو مضمونه، فالهم الأساسي بالنسبة لي في هذه الحالة أن أميز النص القصير عن غيرة، خاصة وأن الكاتب قد يكتب تحت تأثير حالة معينة أكثر من نص يلتقط كل منها زاوية من زوايا هذه الحالة وبالتالي يجدر بنا – إذا اتبعنا الطريقة التقليدية في العنونة – أن نضع الاسم نفسه لكل النصوص المكتوبة تحت تأثير حالة واحدة. ولكن الكاتب في هذه الحالة يميز بين هذه النصوص بعنوان مختلف لكل منها حتى ولو كان العنوان عبارة عن كلمة مستمدة من النص، وقد يميز بينها بأن يضع نفس العنوان للنصوص التي تتناول زوايا مختلفة لتجربة واحدة ثم يضع رقما مختلفا بعد العنوان: قناع (19؛ قناع (2)؛ قناع (3)، الخ. ولا يمكن منطقيا أن أرجع إلى عشرات أو مئات النصوص القصيرة في كل مرة لكي أضع لكل نص عنوانا يليق به، فالذاكرة البشرية لها حدودها وطاقتها. وعند التصنيف في كتاب فقط يمكن للكاتب أن يجمع النصوص التي تنصاع لرؤية إخراجية معينة في كتاب، وبالتالي قد يغير عنوان نص وجد أن نصا آخر أخذه.

العنوان في الغالب يتم وضعه بعد كتابة النص. والكاتب في الغالب لا يضع عنوانا ثم يقرر أن يكتب عنه. ففي الوضع الطبيعي تتم كتابة النص أو تسجيله على الهاتف أو خطوره ببال أو نفس أو مخيلة الكاتب. وعندما يتشكل النص في شكل نهائي يرضى عنه المبدع، يضع صاحبه له عنوانا. ولابد للعنوان إذا كان يصف النص ولا يقتصر على مجرد التسمية أن يتماشى مع ما هو موجود في النص بالفعل، لا مع ما هو موجود في ذهن الكاتب، فاللغة ذاتها بمخزونها الثقافي والاجتماعي والأدبي والنحوي والتركيبي وما إلى ذلك لها مفارقاتها الخاصة وحياتها الخاصة وعندما تجتمع جملة مع أخرى يمكن لإحداهما أن تغير من معنى ووضع الأخرى تماما. والكلمة ذاتها لها حياتها الخاصة وتاريخها الخاص ولكنها عندما تدخل في علاقة شراكة مع كلمات أخرى لابد أن تتولد علاقات بين الكلمات قد تضيف لمعنى الكلمة وقد تسلبها معناها وقد توجه التعبير أو التركيب نحو معنى مختلف تماما عما كان في ذهن الكاتب. وقس على ذلك توظيف جماليات الشكل الأدبي والتاريخ الأدبي والبيئة الاجتماعية التي يُكتب فيها النص. أنا شخصيا كتبت كتابا كاملا عن ثلاث قصائد من ديوان للشاعر المصري السمَّاح عبد الله الذي يتخذ عنوان "خديجة بنت الضحى الوسيع" وصدر في عام 1988 وقرأتُ هذه القصائد على ضوء أحداث ثورة يناير 2011 بمصر

ووجدت في القصائد ما يساعدني على هذه القراءة. ولا يمكننا أن ننسى دور القارئ في إنتاج/تأويل/إعادة صياغة النص وتحويل المنظور الذي يمكن النظر إلى النص من خلاله. وهناك تجارب تاريخية في النقد الأدبي تثبت تحرر النص من مؤلفه، كأن يعطي الأستاذ مثلا بعض القصائد لطلابه دون أن يذكر لهم اسم المؤلف أو الفترة الزمنية التي كتبت فيها القصيدة ويكتشف بعد ذلك أن كل طالب نظر للنص من منظور مختلف تماما بعيدا عن وجهة النظر التي قد يحددها العنوان أو عن ربط النص بالفترة الزمنية التي كتب فيها. بالنسبة لي شخصيا، كثيرا ما حدث معني أن يحدثني صديق مثلا عن نص لي ويقول لي: أنت تتناول هنا كذا وكذا. ولا أملك إلا الابتسام، لأن ما يقوله لي لم يخطر ببالي عندما كتبت هذا النص، وأبتسم لأن الكتابة لها منطقها الخاص واللغة أكبر من قائلها، وعندما أرجع لنصّي بوصفي قارئه وليس كاتبه أكتشف إمكانية ومنطقية قراءة صديقي بالرغم من أنها لم تخطر لي على بال – على الأقل على مستوى الوعي – عند الكتابة.

ونرجع للعنوان، لا توجد مشكلة في أن يكون العنوان كلمة من النص ولي نصوص كثيرة جدا يكون عنوانها كلمة أو عبارة مأخوذة من النص ذاته. هناك فرق بين من يضع قواعد للنقد أو للأدب - والأدب ذاته يستعصي على القواعد وفي الغرب لا يطلقون عليها

قواعد بل يطلقون عليها اسم "أعراف" قابلة للتغير بتغير الظروف والأحوال والمجتمعات والعصور والذائقة وما إلى ذلك، وحاول البنيويون أن يضعوا قواعد لما اسموه بعلم الأدب وفشلوا - وبين الأديب الذي يكتب نصا إبداعيا حقيقيا ويضع له عنوانا يتناسب معه.

من واقع تجربتي الشخصية، لا أستطيع أحيانا أنا أضع العنوان المناسب للنص لأن العنوان الذي أريد وضعه وضعته لنص آخر لي من قبل مثلا. وبالتالي أختار عنوانا آخر. والعنوان من وجهة نظري يمثل منظورا أو إطلالة ننظر منها على النص وندخل إلى النص من خلال الزاوية التي يفتحها لنا هذا العنوان. وهنا لابد أن يكون ما يمثله العنوان حاضرا في النص، بمعنى أن النص لابد أن يكون مكتملا ومكتفيا بذاته وصالحا للبقاء والحياة في أذهان القراء بدون الحاجة للرجوع للعنوان، لأن الوظيفة الأساسية للعنوان هي التسمية، كما ذكرتُ أعلاه وكما نعرف هذه التسمية قد تجمع في ثناياها صفات المُسمَّى وقد تقتصر فقد على تمييز هذا النص عن نص آخر. وهناك نصوص عناوينها عبارة عن أرقام مثلا بالرغم من أنها لا تتناول موضوعا رياضيا على سبيل المثال. وهناك العناوين الوصفية التي تصف موضوع النص مثلا مثل غربة أو خيانة أو وحدة أو انتظار وما إلى ذلك أو تصف شكل النص كأن نقول "ومضة"، "رباعية"، "خماسية"، "مناظر"، "مشاهد"،

"قصة قصيرة"، "مقطوعة"، "شذرة"، "مقطع"، على سبيل المثال. وهناك عناوين تكون بأسماء شخصية من الشخصيات الموجودة في القصة أو الرواية مثلا مثل "الزيني بركات" أو "سارة" أو "زينب والعرش". وهناك عناوين تصف المكان مثل "بين القصرين"، "السكرية" وما إلى ذلك

العنوان من أصعب مراحل كتابة النصوص القصيرة جدا، خاصة إذا كان النص يحمل أكثر من دلالة. والعنوان بوجه ما يمثل وجهة نظر أو يفتح لنا زاوية يمكننا أن ننظر من خلالها للنص، ولكنه لا يستطيع أن يستوعب كل النص على أية حال.

ولكل ذلك لا أرى مبررا لأقوال النقاد بأن العنوان جزء لا يتجزأ من النص. العنوان لابد أن يكون منفصلا ولابد أن يكون النص مكتملا بدونه. فالعنوان يُبرز فقط جانبا من جوانب النص دون أن يحتوي النص أو يستوعب ثراءه. وفي كل الأحوال.

بعد هذه الفقرات التي تناولتُ فيها رؤيتي للعنوان بناء على منجزات الورشة النقدية التي تم عقدها لأكثر من شهرين متواصلين أسبوعيا على مجموعة سنا الومضة القصصية بعد تأسيسها بأسابيع قليلة وبناء على الدراسات التطبيقية التي تناولت العديد من الومضات للعديد من أعضاء سنا الومضة القصصية وتم نشر بعضها على سنا الومضة القصصية ذاتها ونشر معظمها في مجلة

سنا الومضة القصصية الالكترونية، سأنتقل الآن إلى تناول العنوان من خلال بعض كتاباتي السابقة على تأسيس سنا الومضة القصصية ومن خلال كتاب عتبات النص أو محيطات النص لرائد الكتابة عن العنوان، ألا وهو الناقد الفرنسي جيرار جينيت.

دراسات سابقة لي عن العنوان

ذكرت في دراسة لي بعنوان "مشروعية دراسة عتبات النص: قراءة في روج أبيض لزاهر الغازيابي" (1999، وزاهر الغازيابي عضو الآن في سنا الومضة القصصية) تقسيم جيرار جينيت لما يطلق عليه "محيط النص" paratexte إلى "إطار النص" péritexte و"فلك النص" épitexte. "وإطار النص هو كل ما يؤطر النص مثل الإطار بالنسبة للصورة، أي الغلاف بكل ما يحتويه، وصفحة العنوان، والإهداء، والعناوين الداخلية والرسومات والتوضيحات، الخ. أما فلك النص فهو كل ما يدور في فلك النص وذو علاقة به قد تقوى أو تضعف مثل الدراسات النقدية وكل ما يتناول النص أو يقترب منه كالإعلانات والحوارات الصحفية والأعمال التي ترتبط بالعمل بشكل أو بآخر كعلاقة التناص التي يقيمها عمل آخر مع هذا العمل" (ص 126). وفكرة المحيط ذاتها تدل في الإنجليزية والفرنسية والعربية على أن العنوان مجاور للنص أو قريب منه، فالكلمة الإنجليزية والفرنسية paratext,

paratexte تتكون من مقطعين: المقطع الأول عبارة عن سابقة أو مقطع سابق مشتق من اليونانية القديمة بمعنى "بجانب" أو "فيما وراء" أو "ملاصق لـ" والمقطع الأساسي كلمة بمعنى النص. أي أن محيط النص أو ما شاع باسم عتبات النص ليس جزءا من النص وإنما يقيم معه علاقة مكانية وفكرية ومعرفية تقترب أو تبتعد حسب نوع تلك العتبات أو العناصر المحيطة بالنص.

فالعنوان مثلا أقرب هذه العناصر مكانيا للنص، ولكن المقالة النقدية التي تتناول موضوع النص مثلا أقرب معرفيا للنص من العنوان لأنها تسهب في تأويل الأفكار التي يطرحها النص. صورة الغلاف مثلا – وأستحضر هنا صورة غلاف مجموعتي "فتافيت الصورة" والمكون من صور وجوه وأشجار وورود تم تقطيعها ونثر أجزائها في صورة الغلاف – توصل الفكرة الفنية التي تكون وراء تقسيم المجموعة والمراوحة بين الومضات القصصية والأقاصيص – توصلها بطريقة سريعة وبالتالي تكون أقرب لتمثيل روح المجموعة ككل. وهذا الجانب البصري في الغلاف يدعمه بعد ذلك عنوان المجموعة – "فتافيت الصورة" – من خلال التأكيد اللغوي على الدلالات التي تم نقلها بصريا للقارئ حتى قبل أن ينظر إلى العنوان. وكلمة المحيط في اللغة العربية تدل على البيئة والوَسَط اللذين ينشأ فيهما الشخص/النص، ولا تخفى علينا دلالة تأثير هذه

البيئة على الشخص/النص، ولكنها ليست دلالات حاسمة أو فيصلية، يمكن للشخص أن ينشأ في بيئة سلبية ولكنها يمتلك رؤية إيجابية لنفسه وللحياة. ويمكن لمقال نقدي ينتمي إلى فلك النص – الذي هو جزء من محيط النص – أن يصور النص تصويرا جذابا يغوي القارئ لأن يشتري الكتاب مثلا، ولكن ذلك القارئ قد يكتشف ذلك الخداع بمجرد أن يبدأ في قراءة النص وبالتالي ينظر هذا القارئ لمحيط النص نظرة سلبية نظرا للتضارب بين محيط النص والنص ذاته. ويمكن للناشر مثلا أن يلعب دورا – سلبيا أو إيجابيا – في تشكيل محيط النص، فعند نشر ديواني الأول على سبيل المثال، أرسلتُ الديوان للناشر بعنوان "لا تنتظر أحدا يا سيد قصيد" وكأنني أخاطب في العنوان شخصا اسمه "قصيد" تذكيرا للقصيدة المؤنثة. ولكن الناشر لم يستوعب العنوان وظن أن به خطأ لغويا أو أن الألف واللام سقطتا سهوا منّي وقام بإضافتهما – "لا تنتظر أحدا يا سيد القصيد" – بحيث جعل المخاطب "سيد القصيد" بمعنى الشخص الذي يمسك بذمام القصيدة، وهذا ليس مقصودا ولا يمكن لشاعر ينشر ديوانه الأول أن ينظر لنفسه على أنه سيد القصيد. وحدث أيضا أن قمتُ بترجمة كتاب إسرائيل شاحاك إلى العربية وعنوانه: "التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية: وطأة ثلاث آلاف سنة" ولكن الناشر وجد أن ذلك العنوان لن يجذب زبائن كثيرين

للكتاب، فنشره بعنوان: "اليهودية أيديولوجية قاتلة: التاريخ اليهودي وسطوة ثلاث آلاف سنة". وحدث أيضا أنني كتب جزءا من مسودة دراسة لي عن فكرة الزمن في ديوان أحد الشعراء وحفظت الملف مبدئيا بعنوان "هوامش حول فكرة الزمن عند...." وتناولت فيها أحد دواوين ذلك الشاعر ولم أوثق المراجع إلا جزئيا داخل النص على أساس أنني لم أستكمل الدراسة وسأقوم بإعداد قائمة كاملة بالمراجع وسأقوم أيضا باختيار عنوان مناسب للدراسة بعد الانتهاء منها وبعد تناول دواوين أخرى لنفس الشاعر، وأرسلتها لذلك الشاعر لأخبره بأنني بدأت بالفعل في كتابة دراسة عن دواوينه، وفوجئت بنشرها بنفس العنوان المبدئ الذي كان بغرض حفظ الملف وليس نهائيا. فهل في هذه الحالات الثلاث يمكننا أن نقول إن المؤلف قصد استعمال هذه العناوين وإنها تمثل النص خير تمثيل؟ أظن أن الإجابة بالنفي، وصار العنوان مجرد اسم للنص في جميع الحالات، وهو اسم ربما تضادَّ مع فكرة المؤلف من وراء العنوان كما في "لا تنتظر أحدا يا سيد القصيد" أو تم وضعه بغرض دعائي وترويجي كما في "اليهودية أيديولوجية قاتلة" أو تم تثبيته كعنوان بسبب التعجل في النشر كما في "هوامش على فكرة الزمن" الذي لا يمثل الدراسة خير تمثيل لأنه عنوان مبدئي وعام ولا يحدد طبيعة المقصود بالزمن في الدراسة.

ذكرتُ في رسالتي للدكتوراه (2002) أن العنوان يشير إلى شيء غير ذاته، ولابد من وجود بعض الروابط التي تجعلنا نُنشئ علاقة بين النص والعنوان (ص 10). والعنوان يميز النص عن النصوص الأخرى ويُبرز سمة من سماته القارة فيه ويكون بمثابة فاصل أو رابط حدودي بين ما هو أدبي وما يقع خارج نطاق النص الأدبي (ص 10-11). ولا يمكنه أن يُثَبِّت كل جوانب الدلالة أو الإحالة أو المعنى في النص (ص 11)، بمعنى أنه مجرد إطار للنص – مثل الإطار بالنسبة للصورة – والإطار لا يحدد دلالة النص ولا يفرض عليه شيئا، إلا بعد أن يتأمل المشاهد الصورة مثلا وبعدها ينتقل منها إلى الإطار والحائط المعلقة عليه وما إلى ذلك، وقد يؤدي هذا الانتقال إلى إحداث نوع من الربط بين النص البصري المنظور أو المقروء وبين ما يقع خارج هذا الإطار كما في العناوين التي تحيلينا – عن طريق التناص – إلى خارج النص. وقلتُ أيضا إنه بالرغم من أن العنوان مفروض على القارئ لأنه أول شيء يتلقاه عندما يبدأ في القراءة، لا يمنع ذلك القارئَ من أن يلعب دوار إيجابيا في الاستجابة للنص وتلقيه، ويحاول القارئ أن يتصوَّر العلاقة بين دلالة العنوان والنصِّ الذي لم يدخل فيه بعد. ولكنه مجرد تصوّر ومرحلة أولى من مراحل التأويل، فالقارئ لا "يستهلك" النص أو يتلقاه تلقيا سلبيا، فبناءً على ثقافة كل قارئ

وخلفيته المعرفية والأعراف الأدبية التي يتبناها، يقدم كل منهم تأويلا خاصا للنص (ص 12).

وذكرتُ في رسالة الدكتوراه أيضا أن فعل العنونة أو وضع عنوان للنص لا يُشترط أن يقوم به المؤلف، فربما يقتبس المؤلف كلاما مذكورا على لسان شخصية من الشخصيات داخل النص مثلا، وفي هذه الحالة لا يمكننا أن نقول إن العنوان يمثل وجهة نظر المؤلف، فهو هنا يمثل وجهة نظر شخصية من الشخصيات وقد يتبنى المؤلف وجهة النظر هذه وقد لا يتبناها، وهنا نجد أن العنوان يُبْرِزُ صوت هذه الشخصية أو تلك، ويتم استبعاد المؤلف الذي قرر طواعية الاختفاء من الصورة، وربما يسمح المؤلف لشخصية من الشخصيات بإبراز صوتها من خلال العنوان لهدف جمالي معين. باختصار، يقوم المؤلف بتفويض مهمة وضع العنوان لشخصية من الشخصيات لكي يُظْهِرَ لنا مثلا أهمية كلمات تلك الشخصية بالنسبة للقصة ككل أو لكي يسلط الضوء على وجهة نظر الشخصية (ص 13). وخلصت من تحليلي لما كُتب عن العنوان آنذاك إلى أن الوظيفة الوحيدة للعنوان التي يقوم بها كل العناوين على السواء هي وظيفة التسمية، بحيث يُعطي العنوان اسما للنص يميزه عن النصوص الأخرى. وحتى لو حملت بعض النصوص نفس العنوان، فاسم المؤلف هنا يميز هذا النص عن ذاك (ص 14).

العنوان والتسمية

أشرنا مرات كثيرة من قبل إلى أن وظيفة العنوان الأساسية هي التسمية - مثل الاسم بالنسبة للشخص - ولكن تختلف طبيعة التسمية في العنوان عن طبيعة تسمية الأشخاص، فتسمية الأشخاص تعتمد في الأساس على التمنّي من قِبل الوالدين أو من يقوم بتسمية الطفل، والتمني هنا يعني أن الوالدين أو من يقوم بدورهما يختار اسما يظنه ميمونا أو يحمل دلالة شخصية بالنسبة لمن اختار الاسم وقد يحمل دلالة دينية أو اجتماعية أو سياسية وما إلى ذلك من توجهات لدى واضع الاسم.

أما العنوان بوصفه اسما للنص، فلابد أن يكون للنص من عنوانه/اسمه نصيب، بمعنى أن يدل العنوان على النص دلالة جزئية أو كلية أو يشير إلى أحد جوانبه سواء أكان ذلك يتعلق بالشكل أو بالمضمون أو بعلاقة النص بنصوص أخرى وما إلى ذلك. والاتكاء على العنوان وجعله عنصرا تركيبيا لو استغنى عنه النص ضاعت فكرة نصوصيته أو كونه نصا من أخطر العيوب التي يقع فيها كتاب الومضة: تجد الكاتب مثلا يضع عنوانا - كأن يكون اسم شخصية أو لقبها على سبيل المثال - ويستخدم ضمائر داخل النص غير واضح المحال إليه فيها وينتظر من القارئ أن يفهمها على ضوء العنوان. من المفروض أن العنوان ينتمي إلى محيط النص وليس للنص ذاته،

وبالتالي لابد أن يكون النص نصا أولا وأخيرا، بمعنى أن تتوافر فيه العناصر السياقية والحدثية والسردية التي تمكنه من الاعتماد على نفسه وتمكن القارئ من التعامل مع النص على أنه قائم بذاته وعلى أنه كيان متكامل لا يحتاج إلى غيره ليتسق تأويله.

أسبقية النص على العنوان

عملية العنونة عملية لاحقة على الإبداع، ولا يمكنها أن تسبق فعل الإبداع. ومن الناحية التاريخية، لم يأخذ العنوان اهتماما كثيرا من قبل المبدع في بداية الأمر لدرجة أن العديد من القصائد والملاحم التي كتبها الشعراء في العصور القديمة لم يكن لها عنوان وكانت تتم الإشارة إليها ببحرها الموسيقي مثلا أو قافيتها أو مقطع من أول بيت فيها وما إلى ذلك. ويحضرني هنا مثلان وهما قصائد وليم شكسبير وقصائد الشاعرة الأمريكية إيميلي ديكنسون التي عاشت في القرن التاسع عشر، وكنتُ قد أشرتُ إليهما من قبل في هذه الدراسة. فوليم شكسبير لم يضع عنوانا لأي قصيدة من سونتاته وقام النقاد والناشرون بعد ذلك بترقيم هذه القصائد وطبعها في كتاب ولكن القصائد مكتملة في حد ذاتها وتتبع المعمار الفني للسونيت. وإيميلي ديكنسون كتبت مئات القصائد ولم تنشر في حياتها إلا قصائد قليلة جدا ربما تُعد على أصابع اليد الواحدة. واهتم بها النقاد بعد وفاتها ونشروا كل قصائدها. ونظرا لأن ديكنسون لم تكن تضع

عناوين لقصائدها، قام النقاد بوضع السطر الأول من كل قصيدة عنوانا لها، وكل قصائد إيميلي ديكنسون قصائد متكاملة ورائعة بعيدا عن العنوان.

وكما أن العنوان معرّض للإضافة، هو معرّض للحذف أيضا ونرى ذلك في الأعمال التي كانت لها عناوين طويلة جدا - حيث أن أسلوب العنونة قديما، خاصة في الأعمال النثرية - كان يعتمد على اختيار عنوان طويل ربما يصل إلى عدة أسطر، ونلاحظ ذلك في الأعمال التراثية العربية وفي الأعمال الغربية التي تنتمي لما قبل القرن العشرين. وقام النقاد أو القراء أو الناشرون بعد ذلك باختصار هذه العناوين الطويلة حتى تناسب ذائقة العصر الحالي وتقوم بدور الإشارة الموجزة للنص من خلال عنوان مختصر. ونخلص من كل ذلك إلى أن الكاتب عليه أن يصيغ نصه أولا ويسعى لأن يكون هذا النص مكتمل العناصر التي تؤهله لأن يكون نصلا مستقلا وقابلا للحياة بعيدا عن عنوانه وعن كاتبه، أي أن يتحرر النص من سلطة العنوان وسلطة الكاتب في آن. وبعد ذلك تأتي المرحلة التالية المتمثلة في اختيار عنوان مناسب للنص.

جيرار جينيت في الإنجليزية

يستعمل رتشارد ماكسي – الذي كتب الكلمة الافتتاحية للترجمة الإنجليزية لكتاب جرار جينيت - مصطلح الوسيلة أو الأداة

الحدية أو الحدودية liminal devices للإشارة إلى العنوان والإهداء والتمهيد والهوامش والعناوين الداخلية وتوقيع المؤلف وكل ما "يتوسَّط العلاقات الكائنة بين النص والقارئ" (ص 11). ويسميها في موضع آخر "العناصر المحيطة بالنص" paratextual elements (ص 12) ويصفها في موضع آخر بأنها "الأعراف/التقاليد الأدبية والطباعية التي تتوسط بين عالم الطباعة وعالم النص" (ص 17). نستشف من ذلك أن العنوان يحيط بالنص أو يقع في محيطة ولا يمثل لبنة عضوية من لبنات بناء النص: إذا أزلنا العنوان، سيصير النص نصا يشتمل على كل عناصر بقائه ووجوده في قابل الأيام بعيدا عن سلطة العنوان وسلطة المؤلف وسلطة المكان والزمان. ويعزز ذلك وجود العنوان في المنطقة الحدودية أو الحادية التي تفصل بين النص وما هو خارجه تماما، فالعنوان بصريا – خاصة في العناوين الداخلية في الكتاب أو في عناوين النصوص القصيرة المفردة – أقرب شيء للنص. ومكانه هذا يجعل منه عتبة يلجها القارئ – بحكم موقع العنوان قبل النص – قبل أن يدخل للنص. وأتذكر هنا تعليق أحد أعضاء سنا الومضة القصصية على تعليق تناول كلمة يضعها منفصلة في بداية النص وقال إنها عتبة ثانية بعد العنوان الذي هو عتبة أولى من وجهة نظره. لو تبنَّيْنَا الاستعارة المعمارية التي تصوّر العنوان على أنه

عتبة، سيكون منطقيا أن البناء له عتبة واحدة وإلا تعثر القارئ في كثرة العتبات. وأؤكد على أن وصف العنوان بالعتبة استعارة مكانية لا أكثر، فعندما تمت ترجمة كتاب جيرار جينيت إلى اللغة الإنجليزية تُرجم بـ P-Paratexts: Thresholds of Interpretation أي محيطات النص: عتبات التأويل. والترجمة الحرفية للمصطلح هي النصوص المحيطة، ولكن الترجمة الأقرب للمعنى هي محيطات النص ويمكننا في العربية أن نقتصر على صيغة المفرد بحيث نشير إلى كل ما يحيط بالنص من عناصر باسم محيط النص. وهو المعنى الذي يقصده جيرار جينيت ويؤكد عليه في متن الكتاب. وربما كان هذا هو السبب الذي دفعني للقول أهلاه بأن العنوان مجرد وجهة نظر يمكننا أن ننظر من خلالها إلى النص. والمقصود بعتبات التأويل أن العنوان والإهداء والغلاف والتمهيد والدراسات حول النص وما إلى ذلك ما هي إلا وسائل مساعدة تساعدنا في تأويل النص وقد نستشف بعد قراءة النص ذاته أن الكاتب يستعمل العنوان استعمالا ساخرا أو يقوم على المفارقة. كما يمكننا أن نكتشف أن المقالة المكتوبة حول نص ما تقوم على المجاملة وتعطي النص ما لا يستحق وعندما نبحث داخل النص ذاته عما يقوله الناقد فيها لا نجد شيئا منه. ولذلك علينا أن نعتمد حتى في تأول النص على القرائن السياقية الموجودة داخله بالفعل.

عتبات جيرار جينيت

يقول جيرار جينيت في بداية كتابه "عتبات" الذي تمت ترجمته إلى الإنجليزية بعنوان "النصوص المحيطة/محيطات النص: عتبات التأويل" بأن "العمل الأدبي يتكوّن – كليًّا أو جوهريًّا – من نصٍّ يمكن تعريفه – في حدِّه الأدنى – بأنه سلسلة تطول أو تقصر من العبارات اللفظية التي لها دلالة بشكل أو آخر" (ص 1). وهذا يعني أن النص هو مجموعة الجمل التي يتكوّن منها بعيدا عن العنوان. ولكن جينيت يسارع بقول إن النص نادرا ما يتم تقديمه هكذا دون أن تزيّنه أو تدعِّمه أو تصاحبه مجموعة من الأشياء القولية الأخرى مثل اسم المؤلف والعنوان والتمهيد والرسوم التوضيحية. ويسمي هذه الأشياء حالات إخراجية productions ويضيف: "وبالرغم من أننا لا نعرف دائما ما إذا كانت هذه الحالات الإخراجية يمكن النظر إليها على أنها تنتمي للنص أم لا، فإنها تحيط بالنص على أية حال وتمدّه/تمطّه/توسّعه، وذلك بغرض أن تقدّمه بالمعنى المعتاد للفعل وكذلك بغرض أن تجعله حاضرا، لتضمن حضور النص في العالم وتضمن تلقِّيهِ واستهلاكه في شكل كتاب (على الأقل في عصرنا الحالي" (ص 1). وتتفاوت هذه الحالات الإخراجية المصاحبة للنص في مداها وفي مظهرها وتشكّل "النص المحيط بالعمل" the work's paratext (ص 1).

ويعرّف جينيت محيط النص بأنه "ما يُمَكّن النص من أن يصير كتابا ومن أن يتم تقديمه بهذه الصفة للقراء وللجمهور بوجه عام" (ص 1). ويؤكد جينيت على أن النص المحيط ليس مجرد حدٍّ مغلَق، بل هو أقرب للعتبة التي تقدّم لنا فرصة للدخول إلى النص أو الرجوع والإحجام عن الدخول فيه. وهو بذلك "منطقة غير محدَّدَة" بين الداخل والخارج، منطقة لا يوجد لها حدٌّ على الجانب الداخلي (المتوجه نحو النص) أو على الجانب الخارجي (المتوجه نحو الخطاب الذي يدور في عالمنا حول النص)، وهو حافة، وهنا يستشهد جينيت بمقولة لفيليب لوجين: "حافة النص المطبوع التي تتحكم في الواقع في مجمل قراءتنا للنص". ويصف جينيت هذه الحافة بأنها تنقل لنا تعليقا يخص المؤلف أو على الأقل يرتضيه المؤلف بشكل أو بآخر، وهذه الحافة تكوِّن منطقة بين النص وخارج النص off-text، وهي منطقة لا تدل على الانتقال من النص إلى داخله فحسب بل وتدل أيضا على التعامل transaction مع هذا النص: أي أن هذه الحافة مكان متميز بوصفه مكانا للتداولية والاستراتيجية، أي كيف يتم تداول النص أو كيف يحدد المؤلف الغرض من النص وكذلك كيف يُعتبر النص المحيط خطة أو استراتيجية يضعها المؤلف لبيان طريقة تداول النص من وجهة نظره. وتعتبر هذه الحافة من وجهة نظر جينيت أيضا مكانا للتأثير

على الجمهور، وهو تأثير – سواء أسأنا فهمه أم أحسنَّا فهمه – يبتغي التلقّي الأفضل للنص وقراءته قراءة أكثر ملاءمة للنص (أكثر ملاءمة بالطبع من وجهة نظر المؤلف وأعوانه). ويؤكد جينيت على أن كتابه لم يقتصر على تناول هذا التأثير، فباقي الكتاب سيتناول وسائل ذلك التأثير وطرقه وآثاره (ص 1-2).

ويضيف جينيت أن محيط النص يتكوّن عمليا من مجموعة غير متجانسة من الممارسات والخطابات التي لا حصر لها وتنتمي لكل العصور (ص 2). ويضيف أيضا أن النص المحيط مقصود من جانب المؤلف ويتحمّل مسئوليته (ص 3). وفي موضع آخر يصف جينيت النص المحيط بأنه عبارة عن رسائل محيطة بالنص ويلفت انتباهنا إلى أن هذه الرسائل ليست إلزامية أو ثابتة أو واجبة في كل النصوص، ففي بعض الفترات التاريخية لم يكن إلزاميا أن يتم وضع اسم المؤلف أو أن يتم وضع عنوان للنص (ص 3). كما يلفت جينيت انتباهنا إلى أن طرق ووسائلَ محيطِ النص تتغير على الدوام بتغيُّر الفترة التاريخية والثقافة والنوع الأدبي والمؤلِّف والعمل والطبعة (ص 3). وإذا كان جينيت قد قال ذلك عام 1987 في الطبعة الأولى من كتابه باللغة الفرنسية، فلا شك أن التغيرات التكنولوجية والرقمية والوسائطية التي طرأت على عصرنا بعد ذلك

التاريخ ستفرض متطلباتها وآثارها على ما يحيط بالنص من رسائل وعناصر وعتبات.

ويقسّم جينيت دراسة هذه العناصر إلى دراسة سماتها المكانية والزمانية الجوهرية والتداولية والوظيفية. ويقول بأن تعريف العنصر المحيط بالنص يتكون من تحديد موقعه وتاريخ ظهوره أو تاريخ اختفائه وطريقة أو صيغة وجوده وسمات موقف الاتصال الذي يوجد فيه ما بين مرسِل ومستقبل والوظائف التي تهدف رسالة هذا العنصر إلى تحقيقها (ص 4).

ويقسّم جينيت عناصر محيط النص حسب موقعها من موقع النص ذاته: حول النص وحسب ما إذا كان في نفس الكتاب أم توجد مسافة تُبْعِدُه عن الكتاب. ويوجد العنوان والتمهيد وعناوين الفصول الداخلية والهوامش داخل الكتاب ويطلق عليها جيرار جينيت إطار النص peritext. أما العناصر التي توجد خارج الكتاب فتشمل الحوارات مع الكاتب واليوميات والخطابات وما إلى ذلك، ويطلق عليها جيرار جينيت فَلَك النصّ peritext (ص 4-5).

ويلاحظ جيرار جينيت أن عناصر محيط النص قد تختفي في أي وقت بسبب قرار يتخذه المؤلف أو بدون تدخل من المؤلف أو بسبب عوامل الزمن. ويدّلل على ذلك بالعناوين الطويلة التي كان الكتاب يضعونها لكتبهم قديم واختصرتها الأجيال اللاحقة في

عناوين مختصرة وكذلك بالتمهيد الذي كان يُكتب للروايات مثلا وتم حذفه من الطبعات اللاحقة (ص 6).

ويلاحظ جينيت أن محيط النص في كل أشكاله عبارة عن خطاب يستند إلى غيره في الأساس وإضافي ومكرّس لخدمة شيء غيره وهو النص الذي يمثل السبب في وجوده بالأساس. وأيا كان التوظيف الجمالي أو الأيديولوجي الذي يوظّف به المؤلفُ عناصر محيط النص، يظل محيط النص تابعا للنص على الدوام ودوره الوظيفي هذا يحدد جوهرَ جاذبيتِه ووجودِه (ص 12).

وظائف العنوان عند جيرار جينيت

يعرض جينيت وظائف العنوان كما وصفها النقاد قبله وهي أن العنوان 1- يسمّي العمل؛ 2- يحدد موضوعه؛ 3- يغري الجمهور. ويذكر أن هذه الوظائف ليست إلزامية في كل العناوين باستثناء الوظيفة الأولى وهي وظيفة التسمية والتي يمكن أن تقتصر على رقم يميز العمل عن غيره من الأعمال. ويتحدث عن الكتب التي تشترك في نفس العنوان وفيها يظل العنوان غامضا، فعندما تذهب إلى مكتبة تبيع الكتب وتسأل البائع عن العنوان سيرد عليك بسؤال مستفسرا عن اسم المؤلف على سبيل المثال (ص 76).

وبالنسبة لوظيفة تحديد الموضوع، تتفاوت هذه الوظيفة من التحديد المباشر للموضوع إلى التحديد الرمزي، الأمر الذي يفرض على القارئ واجبا تأويليا حتى يربط العنوان بالنص (ص 76-77).

ويلاحظ جينيت أن هذه الوظائف الثلاث ليست وافية، فهناك عناوين قد لا تكشف عن مضمون الكتاب وتكتفي بالكشف عن شكله كأن يكون العنوان "قصائد" أو "قصص" على سبيل المثال، وبالتالي يذهب جينيت إلى وجوب إدخال وظيفة رابعة بعد الوظيفة الثانية أو دمجها بها بحيث تكون: 2- يحدد موضوع العمل أو شكله أو كليهما معا (ص 77). ومن هنا يقسّم جينيت العناوين إلى عناوين موضوعية أو فكرية thematic titles تشير إلى فكرة العمل وموضوعه وعناوين شكلية formal أو نوعية generic تشير إلى شكل العمل أو نوعه الأدبي (ص 78).

ويرى جينيت أن العنوان "اسم" للكتاب ويعيّنه بأدق طريقة ممكنه بما يمنع اللبس. ويلفت النظر إلى أن فعل التسمية يتمثل في فعلين مختلفين. أولهما يتمثل في اختيار اسم للشخص أو تعميده ويتم ذلك بناء على شيء ما كأن يكون الاسم مفضلا أو يتم بناء على توافق أو وفقا لما جرت عليه العادة. ولكن بعد أن يقترن الاسم بالشخص سيستعمله الجميع كاسم يشير إلى الشخص بعيدا عن الدافع وراء اختياره، فهناك فرق بين التسمية بمعنى استعمال اسم

والتسمية بمعنى التعميد وإعطاء اسم (ص 79-80). ويسري نفس الشيء من وجهة نظر جينيت على عناوين الكتب. فعنوان الكتاب مجرد وسيلة لتمييزه عن الكتب الأخرى مثل رقم الإيداع أو رقم طلب الكتاب وفهرسته في مكتبة ما، والهدف منه هو التسمية والتعيين والتحديد لا أكثر وبذلك تكون التسمية أو التعيين هي أهم وظيفة للعنوان ولا يمكن الاستغناء عنها(ص 80).

ويلاحظ جينيت أن العديد من عناوين الأعمال السيريالية تم اختيارها عشوائيا ومع ذلك تقوم بوظيفة التسمية والتعيين مثلها مثل أي عنوان تم اختياره بعناية فائقة، وللقارئ مطلق الحرية - إذا – أعانه خياله – في أن يجد لهذه العناوين العشوائية معنى (ص 81).

مراجع

Elgezeery, Gamal Mohamed Abdel-Raouf Mohamed. Narrative Aspects in Roger McGough's Poetry 1967-1987. PhD Diss. Ain Shams University, Faculty of Arts, English Department, 2002.

Genette, Gerard. Paratexts: Thresholds of Interpretation." Trans. Jane E. Lewin. Cambridge: Cambridge University Press, 1997. Digital printing 2001.

Macksey, Richard. "Foreword". Gerard Genette. Paratexts: Thresholds of Interpretation." Trans.

Jane E. Lewin. Cambridge: Cambridge University Press, 1997. Digital printing 2001. xi-xxii.

جمال الجزيري. "مشروعية دراسة عتبات النص: قراءة في روج أبيض لزاهر الغازيابي". المؤتمر الأدبي الأول لثقافة القاهرة. الأدب والمستقبل: كتاب الأبحاث. القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة (ثقافة القاهرة)، 1999. 115-137. ص 135-136.

جيرار جينيت. "العنوان: مكانه وزمانه، مرسِلُه ومستقبِلُه". ترجمة جمال الجزيري. مجلة تواصل: نشرة أدبية غير دورية تصدرها ثقافة القاهرة. عدد فبراير 1999. ص 36-45.

جيرار جينيت. "وظائف العنوان". ترجمة جمال الجزيري. مجلة تواصل: نشرة أدبية غير دورية تصدرها ثقافة القاهرة. عدد يونيو 1999. ص 39-50.

obeikandl.com